مؤتمر
تحديات ما بعد الربيع العربي
تجمع الأصالة- مجلة البيان
المركز العربي للدراسات الإنسانية
ليبيا – طرابلس (٩ – ١٠) صفر ١٤٣٤هـ (٢٢– ٢٣) ديسمبر ٢٠١٢م

بحوث مؤتمر

تحديات ما بعد الربيع العربي

التحديات الداخلية للإسلاميين

أ.د. ناصر العمر

مقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فإن الناظر إلى تاريخ المسلمين منذ بدء الرسالة يدرك أن الدين لم يقم في المجتمعات، ولم يظهر على الأديان بسهولة ويسر!

بل بدء غريباً، محارباً، تحاك ضده المؤامرات، وتشن عليه الحروب والغارات، ولكن وعد الله حق! (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا) [الفتح: ٢٨]،(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) في آيتين من كتابه [التوبة: ٣٣/ الصف:٩]، قال قبل الأولى: (يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)، وقبل الثانية: (يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ).

كانت الحرب على الإسلام أول أمره على أشدها، من تنكيل وتعذيب، وسحل في رمضاء مكة، ومقاطعة اقتصادية، قتل ومحاولات اغتيالات للقيادات، (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) [الأنفال: ٣٠]، أمة كافرة تخرج بقضها وقضيضها لتنال من رجلين: (ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ) [التوبة: ٤٠]، ومع ذلك ما مضى عقدان من الزمان حتى انتشر الإسلام، ودانت به الجزيرة كلها، وغدا قوة ترهب القوتين العظيمتين المتحكمتين في الأرض آنذاك؛ وهما فارس والروم، بل ما مضى بعد ذلك إلا قليلاً حتى كسرهما الكسرة التي لا انجبار لها في أرض فارس والشام وتعدى القسطنطينية إلى تخوم رومية.

إن الإسلام مذ كان، وكان له أعداء! حريصون كل الحرص على استئصال شأفته، وتلك سنة الله منذ خلق آدم: صراع بين الحق والباطل.

لكن المتأمل يلحظ أن الأمر أول الإسلام كان في ازدياد، وقوة أهل الإسلام مع تسلط الحرب عليهم في اطراد، ثم بدأ يضعف عندما كثرت الأعداد، وقامت الدولة، وبدأت في الظهور عوامل داخلية، كان لها أثرها العظيم في كبح تسارع انتشار الدين وظهور سلطانه.

لما لم تكن تلك التحديات الداخلية موجودة إبان فجر الرسالة، مع أن الأعداء أقوياء، لكن كان أهل

الإسلام يمضون قدماً في الظهور، ولما استفحلت تلك الأسباب تغير الحال! وسنجي هذه الحقيقة بمشيئة الله تعالى، لكن لنقف قبلها مع تنبيه يتعلق بالتحديات الأخرى.

التحديات الخارجية:

لا يفهم مما سبق أني هنا بصدد التقليل من خطر المؤامرات الخارجية، أو الإنكار لوجودها! حاشا، فكيد أهل الباطل ومحاولتهم النيل من أهل الحق، لا ينكرها من تبصر، فعداؤهم للرسل وأتباعهم قديم، إنكاره إنكار نصوص متواترة قطعية، وهو إحسان ظن بالعدو الذي أخبر الله عن عداوته، ثم هو كذلك غفلة عظيمة عن الواقع، لكن المقام ليس للحديث عن هذا، ولا يتسع له لكني أذكر ببعض النصوص التي تقرر هذه الحقيقة، لأنه يوجد من يحسن الظن بدول الكفر، ويهول على من يحذر من الركون إليها والله تعالى يقول: (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ) [البقرة: ١٠٥]، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) [آل عمران: ١١٨]، (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا) [النساء: ٤٤-٤٥]، (كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ) [التوبة: ٨]، (هَأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) [آل عمران: ١١٩]، (وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا) [نوح : ٢٢]، منذ عهود قوم نوح والمؤامرات تبرم بليل!

فهذه حقيقة شرعية واقعية لابد أن تعلم.

العلاقة بين التحديات الداخلية والخارجية:

مما يجب أن يعلم أن الكيد الخارجي لم يكن ليؤتي أكله اليوم في الأمة إلا مع تفاقم أسباب داخلية، وإلا

فالكيد قديم، فلماذا فشل الأعداء أول الأمر فبزغ فجر الرسالة وانتشر الدين وظهرت دولته وهم كارهون؟ ولماذا لمّا كثر المسلمون وملئوا الأصقاع انحسر أمر دولتهم، مع أن كيد الأعداء هو الكيد، والعداء هو العداء؟

قبل الجواب أنبه على أن الناس في المؤثرات التي تردت بسببها الأمة ثلاثة أقسام: منهم من يضخم الأثر

الخارجي حتى يكاد يحصرها فيه[١]، ومنهم من يضخم الأثر الداخلي حتى يكاد يحصرها فيه[٢]، لكن الأكثرون يعون أن ثمة مؤثرات خارجية وداخلية، والمهم الذي ينبغي أن يضاف هنا، هو أن الخارجية ما كانت لتثمر ثمارها الخبيثة إن لم تكن ثمة أسباب داخلية تمدها، وبحسب الوضع الداخلي يكون الأثر الخارجي، فإن كانت أوضاع الأمة الداخلية مضعضعة أثر فيها أدنى ضغط خارجي، وإن كانت قوية متماسكة لم يضرها تداعي الأمم عليها، (وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) [آل عمران: ١٢٠].

من التحديات عدم معرفة الأسباب:

لعل أسباب ضعف الأمة من داخلها هي أهم تحديات الإسلاميين اليوم!

والكتابات في هذا الموضوع كثيرة، فيها الغث والسمين، بل لا أبالغ إذا قلت إن من أسباب ضعف الأمة بعض الكتابات في أسباب ضعف الأمة!

وذلك لأن بعض الكتابات في هذا الباب تروج لفكر منحرف يزيد الأمة ضعفاً إلى ضعفها، ولا يخفى عليكم من جعل الدين أفيون الشعوب، وما أكثر من يكتبون اليوم عن أسباب تخلف الأمة حاصرين لها في عدم الانفتاح على الحضارة الغربية، يريدون عدم سيرها في ركابهم، وسن سننهم، والخضوع طواعية لقوانينهم.

ودون هؤلاء فئة قد تنسب إلى إسلاميين يحمِّلون الإثم علماء الدين، ويجعلونهم سبب تخلف المسلمين، يصفونهم بالجمود وقلة المرونة وعدم المسايرة للواقع وعدم فهمه، ينعون عليهم أنهم من لدن القرون الأولى إلى يوم الناس هذا وفهمهم للدين هو هو! .. إلى آخر ذلك مما يصب في مقررات الاتجاه الأول أعني الداعي للسير في ركاب الغربيين، لسان حالهم: (ائت بقرآن غير هذا أو بدله)! ولكن بصورة ملتوية عصرية! فيها مسحة إسلامية أو مصلحية!

(١) من أمثال النشار في نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ص٦١.
(٢) ككثير من المستشرقين المشككين في الإسلام أمثال البارون كارادي فو، وإرنست رينان.

ودونهم فئة إسلامية أخطأت الطريق، فظنت أن أهم العوامل الداخلية لتردي الأمة عدم وجود مشاركة سياسية فعلية من العامة بكافية أطيافهم الدينية واللادينية في نظام الحكم، ثم لوت حقائق التاريخ لياً لينسجم مع هذا المعنى، فيقولون: دولة المدينة مدنية، الشورى في نظامها هي بعينها الديمقراطية! ومن العجيب أن كثيراً منهم ينعى على الدولة الأموية ثم العباسية نظامها ويصفه بالاستبدادي! مع أنهما كانتا القوتين الظاهرتين في وقتيهما! وظلتا كذلك قرونا! ثم يقول: المشاركة السياسية!

إلى غير ذلك من تيه العقول في أسباب ضعف الأمة، ومن ثم مشاريع استصلاحها!

والأمر أشد من ذلك، فليس الشأن خطأ في معرفة الأسباب فحسب، بل هو كذلك خطأ في تشخيص المظاهر، فمظاهر صحية هي عند بعضهم من مظاهر الداء يجب استئصالها! ومظاهر سلبية خطرة مظهر حضاري عند بعضهم ينبغي أن يكون!

فمثلاً وجود الجماعات الإسلامية المتعاونة لا المتناحرة.. وجود المؤسسات الإسلامية الفاعلة.. وجود الأنشطة الإسلامية العامة، بل وحتى الخاصة كالحلية مظهر سلبي يجب أن يحارب في نظر بعضهم! بينما وجود الأحزاب الكفرية والإلحادية، وتفرق الأمة بين لبرالية واشتراكية، وفشو المنكرات والمعاصي مظهر حاضري تقدمي وانفتاح حقوقي عند بعضهم، يجب تطويره إن وجد، وإحداثه إن لم يكن موجوداً.

ولست في صدد بحث جميع عوامل ضعف الأمة ومظاهر ذلك، فهذا موضوع أكبر من أن يستوفى في مثل هذه الورقة، لكن اعرض ما يقال على الكتاب والسنة، وتتبدى لك الحقائق بعدها، بل اعرضه كذلك على حقائق التاريخ، وانظر هل كان ما يذكرونه أثراً في ضعف الأمة؟

وإنما الموضوع هو التحديات الداخلية للإسلاميين، وتندرج فيه كثير من عوامل ضعف الأمة الداخلية، ولا بأس أن تخلط بشيء من مظاهر ذلك الضعف، فكلها تحديات تواجه الإسلاميين.

الإصلاح والإسلاميون!

إن (الإصلاح) ليس هو الإزالة والإتيان ببديل، كما أن التجديد ليس هو إحداث جديد مكان العتيق! بل هو ما يتبادر من إطلاقه عند العامة، أصلح الشيء إذا أعاده لهيئته الأولى صالحا لما يراد به، والتجديد قريب من ذلك.

فإذا قيل أصلح فلان سيارته، فلا يعنون أتلفها واشترى أخرى! بل أعادها إلى سابق عهدها مؤدية لوظيفتها.

وعليه فإن إصلاح أنظمة الحكم السياسية، أو إصلاح النظام الاجتماعي، أو إصلاح المنظومة القيمة والأخلاقية، إلى غير ذلك لا يمكن أن يعني استيراد أنظمة الغرب وقيمه وأخلاقياته وجعلها محل الأنظمة الإسلامية! فهذا يمكن أن يسمى إحلال أو استبدال أو ثورة على القيم والنظم والأخلاق، أو نحو ذلك.

أما الإصلاح من منظور إسلامي فهو إرجاعها إلى الطريقة الأولى المرضية، التي كان عليها صدر هذه الأمة، وأرشد إليها نبيها عليه الصلاة والسلام، وجاء بها القرآن، بحيث تؤدي وظيفتها في تلك المجالات كما كانت.

أما (الإسلاميون)، فالمراد بهم الإطلاق العام المتعارف عليه حتى في بعض المعاجم الغربية وهم المسلمون الذين يدعمون أو يدعون لإقامة الإسلام، في النفوس، وفي كافة مناحي الحياة.

أهم التحديات:

عوامل ضعف الأمة الداخلية كثيرة، وكذلك مظاهر انحرافها عن الجادة التي ينبغي أن تصلح لتعود إلى العهد الأول.

والمهم أن ندرك أنه لا يضيرنا عظم التحديات إذا سلمت الجبهة الداخلية بدءا بالنفس ومرورا بالأسرة وانتهاء بالأمة.

فكما سبق (لن يضروكم إلاّ أذى) [آل عمران: ١١١]، (وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ) [آل عمران: ١٢٠]، فلن تؤثر العوامل الخارجية أثرا يضر ما لم تكن ثمة أسباب داخلية تتفاعل معها، ولهذا انبثق نور الإسلام أول أمره مع وجود المحاولات الخارجية العظيمة لحبسه التي لم تضر الجيل الأول إلاّ أذى، والله تعالى يقول: (وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ) [الشورى: ٣٠]، وقال: (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) [آل عمران]، وهذا في أحد، وتأمل مع أن ما أصابهم بأيدي العدو الخارجي، لكن أرجع الله تعالى السبب إلى أنفسهم، فوجود العوامل الخارجية سنة قديمة باقية وإنما يفعل هذا فعله إذا كانت ثمة

عوامل داخلية مساعدة.

وإذا تحقق أمران تجاوزت الأمة أعظم التحديات وهما:

سلامة التصور الإسلامي.

العمل على تحقيقه واقعاً جميعاً.

وأهم الصوارف عن هذين ثلاثة أمور هي أعظم التحديات التي ينبغي أن نقف معها وهي:

الأول: الجهل بالدين.

الثاني: الهوى.

الثالث: تبديد الجهود وصرف الأوقات في خلافات ونزاعات داخلية بين الإسلاميين، وهذا من أعظم أثر الاثنين قبله.

وإذا كانت هذه قضايا يجب أن تكون معالجتها ضمن خطط البناء طويلة المدى أو كما يقال ضمن (استراتيجيات) العلماء والدعاة والحركات الإسلامية والجماعات، فإن ثمة تحديات أخرى وقتية (تحديات الوقت) أفرزتها الثورات العربية في هذه الآونة، أقف معها وقفة بعد التعرض لهذه التحديات الثلاثة الإستراتيجية.

أولاً: الجهل بالدين.

ربما لا يعي كثير من الإسلاميين كون هذا تحدياً! مع أن هذا معيار يبين لك مدى قرب الإسلامي من الإسلام الحق أو بعده عنه نحو المناهج الأخرى! ومن المقرر أن فاقد الشيء لا يعطيه، فمن السذاجة أن يظن الإسلامي أن الحديث عن هذا سذاجة! والله تعالى أمره في نفسه أن يستعيذ كل يوم من طريق المغضوب الضالين، سبعة عشر مرة أو أكثر في فاتحة الكتاب عند كل صلاة! والضالون هم الذين عبدوا الله على جهالة.

إن الحياة معقدة، نوازلها وقضاياها التي تحتاج إلى بصيرة بالدين كثيرة، لا يكفي معها مجرد حسن القصد مع الذكاء وكثرة الحركة! بل لابد مع ذلك من علم راسخ، يبين حكم الله في النازلة، ويبحث الطرق الشرعية في المعاملات، فيُأَسلمها كما يقال سواء كانت بنكية، أو تجارية، أو قضائية، أو سياسية أو غيرها.

والناظر في تاريخ الأمة يجد أن من أعظم أسباب الضلال الأول الجهل بالدين، أعني به ما قرره الله في كتابه أو بعث به نبيه صلى الله عليه وسلم، فذاك هو العلم. وقد لا تغني شيئاً النية الحسنة وحدها، ولا كون صاحبها إسلامياً عابداً متمسكاً، وتأمل حال الخوارج، كانوا بالمصطلح المعاصر من جملة الإسلاميين، وكانوا من أشد الناس عبادة، وأحرصهم على إقامة الدين، حتى قال صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه في شأن رأسهم ذي الخويصرة: "إن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية"(١)، وكذلك القدرية ورأسهم بالبصرة عمرو بن عبيد الذي بلغ من تنسكه مبلغاً كان إذا مر مع أبيه –وكان صاحب شرطة– قال الناس: خير الناس ابن شر الناس! فيقول عبيد: صدقتم، هذا إبراهيم وأنا آزر! ولما مات يقال إن أبا جعفر المنصور رثاه بقصيدة يقول فيها:

صلى الإله عليك من متوسدٍ ... قبراً مَررتُ به على مَرَّان(٢)

قبراً تضمن مؤمناً متخشعاً ... صدق الإله ودان بالقرآن

وإذا الرجال تنازعوا في سنة ... فصَل الحديث بحكمة وبيان

فلو أن هذا الدهر أبقى صالحاً ... أبقى لنا حياً أبا عثمان!

ومن المشهور فيه قوله:

كلكم يمشي رويداً كلكم يطلب ... صيداً غير عمرو بن عبيد!

ومع ذلك كان هذا الرجل أحد أعلام تفريق الأمة، وأحد رؤوس القدرية الذين قال فيهم عبدالله بن عمر رضي الله عنه: "إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبدالله بن عمر: لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر"(٣).

---

(١) حديث أبي سعيد متفق عليه رواه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤).

(٢) كشدَّاد بلدة قرب مكة، على ليلتين منها بين الحرمين، كذا قال في تاج العروس ٣٦/ ١٦٤، وأظنها اليوم معروفة قرب الموية على طريق مكة الطائف مخرجها قبل الطائف بنحو ١٧٠ كم إلى الشمال.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٨).

وقد روى البيهقي، عن إبراهيم التيمي، قال: خلا عمر بن الخطاب ذات يوم فجعل يحدث نفسه، فأرسل إلى ابن عباس فقال: كيف تختلف هذه الأمة، وكتابها واحد، ونبيها واحد، وقبلتها واحدة؟ قال ابن عباس: "يا أمير المؤمنين! إنما أنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيم نزل، وإنه يكون بعدنا أقوام يقرءون القرآن ولا يعرفون فيم نزل، لكل قوم فيه رأي، فإذا كان لقوم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا"[١].

قال الشاطبي: "ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما هو الحق، فإنه إذا عرف الرجل فيما نزلت الآية أو السورة عرف مخرجها وتأويلها وما قصد بها، فلم يتعد ذلك فيها، وإذا جهل فيما أنزلت احتمل النظر فيها أوجهاً. فذهب كل إنسان مذهباً لا يذهب إليه الآخر، وليس عندهم من الرسوخ في العلم ما يهديهم إلى الصواب، أو يقف بهم دون اقتحام حمى المشكلات، فلم يكن بد من الأخذ ببادئ الرأي، أو التأويل بالتخرص الذي لا يغني من الحق شيئاً، إذ لا دليل عليه من الشريعة، فضلوا وأضلوا"[٢].

الجهل المركب خطره أعظم:

قال ابن القيم: "كان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: من فارق الدليل ضل السبيل، ولا دليل إلا ما جاء به الرسول، قال الحسن: العامل على غير علم كالسالك على غير طريق والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح"[٣]، بل يظن أنه مصلح، بل يسخر من العلماء الذين أوجب الله الرد إليهم، ومن حقهم أن يُصدر عن رأيهم ويأتمر بأمرهم، وكل هذا تشهده الساحة الإسلامية اليوم!

ومن يتأمل واقع الإسلاميين اليوم يجد الجهل العريض متفش، لا الجهل بالدين فحسب، بل بمقررات أئمتهم ومن ينتسبون إليهم، فلو كان العامي من الإسلاميين مقلدا مكتفيا بذلك فربما سلم، لكن الشأن أشد جهل بالشريعة وجهل بآراء المقدمين ممن ينتسبون إليهم، ثم اعتداد بالآراء وتعصبات لنتف واجتهادات أفسدت الساحة الإسلامية. إن تجاوز من فرضه التقليد موضعه، وتصدره أو تصديره من جملة اتخاذ الرؤساء الجهال، الذين عاقبة أمرهم ضلال وإضلال، كما في حديث عمرو بن العاص المتفق عليه[٤].

(١) شعب الإيمان ٣/ ٥٤٢ (٢٠٨٧).
(٢) الاعتصام ٢/ ١٨٣.
(٣) انظر مفتاح دار السعادة ١/ ٨٣، والاعتصام ٢/ ١٧٥ وتعليق الشاطبي عليه.
(٤) رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

فلابد من ضبط الجماهير الإسلامية ولا أنجع في ذلك من بث العلم النافع بينهم، ودعوتهم للتفقه، ومن لم يستطع فليزم الفقهاء وآراءهم، ولا يخاصم عنهم، فإن من بلايا الأمة خصام الجهلاء عن العلماء تعصباً وحباً، ومتى ترك العامي فرضه الذي هو التقليد هوى أو عصبيةً أفسد.

وعلى كل حال التفقه في الدين والصدور في الدعوة عن بصيرة وقيادة الأمة على هدى من الله من أول ما يجب أن يدخل في اهتمام الإسلاميين فهو تحدي الساحة العظيم. ويعظم أكثر إذا كان الإسلامي يعتقد في نفسه العلم! مع أن غاية ما عنده نتف ثقافية مجتلبة من هنا وهناك! فلسفية شرقية أو غربية لم تؤسس على أصول العلم، وهذه بلية قديمة قال الشاطبي رحمه الله لما تحدث عن أسباب الافتراق: "أحدها: أن يعتقد الإنسان في نفسه أو يعتقد فيه أنه من أهل العلم والاجتهاد في الدين –ولم يبلغ تلك الدرجة– فيعمل على ذلك، ويعد رأيه رأيا وخلافه خلافا! ولكن تارة يكون ذلك في جزئي وفرع من الفروع، وتارة يكون في كلى وأصل من أصول الدين –سواء كان من الأصول الاعتقادية أو من الأصول العملية– فتراه آخذاً ببعض جزئيات الشريعة في هدم كلياتها، حتى يصير منها ما ظهر له بادي رأيه من غير إحاطة بمعانيها ولا رسوخ في فهم مقاصده، وهذا هو المبتدع وعليه نبه الحديث الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال: (لا يقبض الله العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)"[1].

ومما يجب التنبه عليه في هذا المقام، هو أن مخالفة الواجب الشرعي، مغبتها عظيمة حتى وإن كان المخالف متأولاً فاضلاً يحب الخير، وتأمل ما حل بالمسلمين يوم أحد واعتبر، فقد خالف الأمر صحابة كرام أفاضل، لم يخالفوه عناداً أو اتباعاً لهوى، بل تأولاً، وعدم وقوف مع مقتضى النص لشبهة، مع أن النص يقول: (إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم، وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم)[2]، فانظر كيف كانت العاقبة، مع حسن القصد، ثم تأمل التأويلات الباردة اليوم التي يترك لأجلها أقوامٌ النصوصَ تماشياً مع روح العصر كما يقولون! فالحذر الحذر، والجد الجد في معرفة الحق ودلالة النص ومن ثم اتباعه، (قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) [النور: ٦٣]، فليحذر فإن مخالفة الشريعة وإن كانت بحسن قصد قد تكون مغبتها عظيمة، واعتبر هذا بمثال: رجل يشرب الدخان أو يأكل القات متأولاً يعتقد حله مع

(١) الاعتصام ٢/ ١٧٣، والحديث المذكور هو حديث عمرو بن العاص الذي مضى تخريجه في الحاشية السابقة.
(٢) صحيح البخاري (٣٠٣٩).

أنه في الحقيقة حرام، فقد لا يكون آثماً عند الله عز وجل، لكن لا يعني هذا أنه سيسلم من المضاعفات الصحية للدخان أو القات، فالله أجرى الدنيا على مصالح أرشدت إليها النصوص، وقد يعذر المخالف لكن سنة الله ماضية، وهذا يقرب لك ضرورة الاجتهاد في معرفة أحكام الله تعالى لمن آمن أنها إنما أنزلت لصلاح أمر العباد في الدنيا والآخرة.

ثانياً: الهوى.

"فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب وهو الاستمتاع بالخلاق، فالأول البدع، والثاني اتباع الهوى، وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء، وبهما كذبت الرسل، وعصي الرب، ودخلت النار، وحلت العقوبات.

فالأول من جهة الشبهات.

والثاني من جهة الشهوات، ولهذا كان السلف يقولون احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فتنه هواه، وصاحب دنيا أعجبته دنياه، وكانوا يقولون احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا يشبه المغضوب عليهم؛ الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه، وهذا يشبه الضالين؛ الذين يعملون بغير علم"[(١)].

والأول مرده لاتباع الهوى كذلك، قال الشاطبي رحمه الله في بيان أن اتباع الهوى ضلال مبين: "ألا ترى قول الله تعالى: (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) [ص: ٢٦]، فحصر الحكم في أمرين لا ثالث لهما عنده هو: الحق، والهوى، .. وقال: (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه) [الكهف: ٢٨]، فجعل الأمر محصوراً بين أمرين اتباع الذكر، واتباع الهوى، وقال: (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) [القصص: ٥٠]، وهي مثل ما قبلها، وتأملوا هذه الآية فإنها صريحة في أن من لم يتبع هدى الله في هوى نفسه فلا أحد أضل منه، وهذا شأن المبتدع فانه اتبع هواه بغير هدى من الله وهدى الله هو القرآن"[(٢)].

(١) ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، ١/ ١٣٦-١٣٧، وانظر إغاثة اللهفان ٢/ ١٦٦.
(٢) الاعتصام ١/ ٥١.

وقد "سمي أهل البدع: أهل الأهواء؛ لأنهم اتبعوا أهواءهم؛ فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها والتعويل عليها حتى يصدروا عنها، بل قدموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثم جعلوا الأدلة الشرعية منظورا فيها من وراء ذلك"(١)، وانظروا ما نجم عن ذلك من التفرق في الأمة والتمزق شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون.

قال: "وقد دل على ذمه القرآن في قوله: (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) [الجاثية: ٢٣] الآية، ولم يأت في القرآن ذكر الهوى إلا في معرض الذم، حكى ابن وهب عن طاوس أنه قال: ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه! وقال: (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) [القصص: ٥٠]، إلى غير ذلك من الآيات، وحكى أيضا عن عبد الرحمن بن مهدى أن رجلاً سال إبراهيم النخعي عن الأهواء أيها خير؟ فقال ما جعل الله في شيء منها مثقال ذرة من خير! وما هي إلا زينة الشيطان وما الأمر إلا الأمر الأول؛ يعنى ما كان عليه السلف الصالح"(٢)، ومن ذلك أن يكون هواه تبعاً لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

آفتان يأتي بهما الهوى:

ومما سبق نخلص إلى أن اتباع الهوى سبب في آفتين عظيمتين تهددان المجتمع من داخله:

الأولى: التفرق والاختلاف، لأن الأهواء مختلفة ومرادات النفوس متباينة، وآراء العقول متفاوتة، ولا اعتداد بكتاب أو سنة، أو رجوع لمقتضاهما عند من حكم عقله! وعن ذلك نشأت الفرق قديماً، وكذلك ينشأ التحزب الممقوت، القائم على الهوى الذي نهينا عنه في مثل قول ربنا: (وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) [الروم : ٣١-٣٢]، (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ * وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) [الأنبياء: ٩٢-٩٣]، (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ) [المؤمنون: ٥٢-٥٤]، (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ) [الأنعام: ١٥٩].

الثانية: الركون إلى الشهوة، وما تريده النفوس من الخلود إلى الدعة والمتعة واللذة، وهي التي ذم الله أهلها فقال عز وجل: (فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ

(١) السابق ٢/ ١٧٦.
(٢) السابق ص ١٨٠.

لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَالدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ) [الأعراف: ١٦٩]، وقال في الآية الأخرى: (فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) [مريم: ٥٩].

وعلاج هذه الآفة يكون بتحقيق الخشية، مع الصبر والنظر في العواقب، كما أن علاج الآفة المذكورة في السبب الأول هو العلم، فدار الأمر على العلم، والصبر، والعمل بمقتضاهما.

قال ابن القيم رحمه الله: " تنة الشبهات تدفع باليقين، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين فقال: (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) [السجدة: ٢٤]، فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. وجمع بينهما أيضا في قوله: (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) [العصر: ٣]، فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات"[(١)]، وتأمل أول السورة (إن الإنسان لفي خسر) ثم الاستثناء.

قال شيخ الإسلام: "صلاح بني آدم الإيمان والعمل الصالح ولا يخرجهم عن ذلك إلا شيئان:

أحدهما: الجهل المضاد للعلم فيكونون ضلالاً.

والثاني: اتباع الهوى والشهوة اللذين في النفس فيكونون غواة مغضوبا عليهم؛ ولهذا قال: (والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى) [النجم: ١-٢]، وقال: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ)[(٢)]، فوصفهم بالرشد الذي هو خلاف الغي وبالهدى الذي هو خلاف الضلال وبهما يصلح العلم والعمل جميعا ويصير الإنسان عالما عادلا لا جاهلا ولا ظالما"[(٣)].

ثالثاً: تبديد الجهود وصرف الأوقات في خلافات ونزاعات داخلية بين الإسلاميين.

وهذا من أعظم أثر الاثنين قبله، قال الشاطبي: "الاختلاف في بعض القواعد الكلية لا يقع في العادات الجارية بين المتبحرين في علم الشريعة، الخائضين في لجتها العظمى، العالمين بمواردها ومصادرها، والدليل

(١) إغاثة اللهفان ٢/ ١٦٧.
(٢) رواه أحمد في المسند (١٧١٨٢)، وأصحاب السنن، أبو داود (٤٦٠٩)، والترمذي (٢٦٧٦) وقال هذا حديث صحيح، وابن ماجة (٤٢)، وغيرهم.
(٣) الفتاوى ١٥/ ٢٤٢.

على ذلك اتفاق العصر الأول، وعامة العصر الثاني"[١]، فإذا كان الجهل وقع الشقاق والافتراق والخلاف في الأصول الكبار، وكذلك إن قادت الناس الأهواء، قال ابن تيمية: "مواضع التفرق والاختلاف عامتها تصدر عن اتباع الظن، وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى"[٢]، والسبيل لعلاج ذلك سلوك سبيل العلم والقيام بالقسط ولو على حساب النفس أو الأقربين، قال شيخ الإسلام: "علينا أن نؤمن بكل ما جاء من عند الله، ونقر بالحق كله، ولا يكون لنا هوى ولا نتكلم بغير علم؛ بل نسلك سبل العلم والعدل وذلك هو اتباع الكتاب والسنة؛ فأما من تمسك ببعض الحق دون بعض فهذا منشأ الفرقة والاختلاف"[٣]، وواقع الناس اليوم أن الإسلاميين أنواع، ومع كل نوع شيء من الحق يقل أو يكثر، ويقع الافتراق المذموم عندما يبغي من معه بعض الحق على آخر معه بعض الحق، قال ابن تيمية: "إذا تأملت ما يقع من الاختلاف بين هذه الأمة؛ علمائها، وعبادها، وأمرائها، ورؤسائها، وجدت أكثره من هذا الضرب الذي هو البغي بتأويل أو بغير تأويل، كما بغت الجهمية على المستنة في محنة الصفات والقرآن؛ محنة أحمد وغيره، وكما بغت الرافضة على المستنة مرات متعددة، وكما بغت الناصبة على علي وأهل بيته، وكما قد تبغي المشبهة على المنزهة، وكما قد يبغي بعض المستنة إما على بعضهم، وإما على نوع من المبتدعة بزيادة على ما أمر الله به، وهو الإسراف المذكور في قولهم: (ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا) [آل عمران: ١٤٧]، وبإزاء هذا العدوان تقصير آخرين فيما أمروا به من الحق أو فيما أمروا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذه الأمور"[٤]. وقد قال رحمه الله في بيان الواجب على عامة الإسلاميين: "الواجب على المسلم أن يلزم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنة خلفائه الراشدين والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وما تنازعت فيه الأمة وتفرقت فيه إن أمكنه أن يفصل النزاع بالعلم والعدل، وإلا استمسك بالجمل الثابتة بالنص والإجماع، وأعرض عن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً"[٥].

وملخص هذا القسم أن الاختلاف واقع في الأمة بسبب الجهل والهوى وتوزع الحق بين أهله، مع ما يصحب العامة وبعض الخاصة من بغي وتعصب، وسبيل علاج هذا الواقع:

(١) الاعتصام ٢/ ١٧٢.
(٢) إقامة الدليل على بطلان التحليل من الكبرى ٦/ ٤٦٣.
(٣) مجموع الفتاوى ٤/ ٤٥٠.
(٤) مجموع الفتاوى ١٤/ ٤٨٣.
(٥) الفتاوى الكبرى ٦/ ٤٦٣.

حصر الجدال بالتي هي أحسن والمناظرة بين أهل العلم والورع، من رؤوس الناس.

ونهي عامة الإسلاميين من الخوض فيه إلا بعلم،

بل يلزم العوامُ الجملَ الثابتة،

ويقلدون من يثقون فيه،

ويتركون البحث العلمي لأهله،

ويجتنبون المراء والجدل،

وينأون بأنفسهم عن التعصب والخوض والقدح،

فإن هذا مما يذم عليه العامي ويؤزر ولو وصادف أنه نصر الصواب، لأنه ترك فرضه، وخاض فيما نهي عنه، كالمفتي الذي يفتي بالجهل فيوافق الصواب.

والمتأمل للساحة الإسلامية يجد أكثر ما يذكي الصراع العامة بدخولهم فيما لا يحسنون، ولهم من المناصب والأفعال والتصرفات وأنواع الضغوط بعد ذلك ما يزيد الشقة حتى بين العلماء، ولابد من علاج لهذا الخلل حتى يستقيم الأمر.

فلو عمل الناس بالجمل الثابتة، واشتغلوا في المساحات المتفق عليها، وتسامحوا وتركوا التَّشاح، لأثمرت جهودهم ثماراً عظيمة، ويبقى التناصح واجباً بين أهل العلم وطلابه العدول، ومن شأن هذا أن يوسع مساحات العمل المشترك ويضاعف الثمار، والله لطيف بعباده، إن علم منهم خيراً فحري بهم أن يوفقوا: (إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيرا) [النساء: ٣٥].

ضرب آخر من الخلاف:

الخلاف فقد يكون خلاف تنوع وقد يكون خلاف تضاد كما هو معلوم، ولو كان خلاف الإسلاميين من الضرب الأول لهان الأمر، ولكن الحق الذي يجب أن لا نتعامى عنه أن خلاف الساحة الإسلامية خلاف تنوع ويكتنفه خلاف تضاد، في طريق بناء الدولة الإسلامية وتصورها، والخلاف الحقيقي هو الذي تناوله الحديث السابق.

أما خلاف التنوع، فلا يضر إن كان ثمة تكامل وتعاضد بين المختلفين، وهذا هو الذي يجب أن يكون بين الإسلاميين، فلكل منهم ما يحسنه، ولكل منهم تخصصه، فالأولى أن ينشغل به، على أن يكون ثمة تنسيق وتكامل في العمل لتقوم دولة الإسلام.

وتأمل في واقع الدول، تجد أن من البدهي عدم وجود إشكال في أن تكون ثمة وزارة دفاع لها تخصصها، ولا إشكال أن تكون معها وزارة شؤون اجتماعية، أو وزارة أوقاف، أو وزارة داخلية، أو وزارة خارجية، بل كل ذلك مطلوب، لا تقوم دولة على مجرد وزارة دفاع، كما لا تقوم على مجرد وزارة داخلية! لكن انظر إلى الخلل لو كانت تلك الجهات متخبطة لا تنسيق بينها، وبين مؤسساتها المختلفة التابعة لها كيف تكون الحياة؟

وهكذا التنوع في العمل الإسلامي من أعظم التحديات فيه، التنسيق وترتيب الأمور بحيث لا تكون ثمة تقاطعات ونقاط تأخير، وبحيث لا يكون هناك تبديد للجهود وإهدار لها في عمل مكرر.

تحديات الوقت:

ذكرت أن الثلاثة المتقدمة تحديات كبرى تتفرع عنها في تقديري سائر التحديات الداخلية، وعلاجها يجب أن يكون هدفا معظماً لدى الدعاة والعلماء والجماعات الإسلامية، غير أن ثمة تحديات متعلقة بهذه قد تمثل بعض مظاهرها، هي اليوم ظاهرة على الساحة ولابد من الالتفات إليها فمن ذلك:

أفرزت الثورات أوضاعاً داخلية معقدة أسهم الغرب في صناعتها، ومن ذلك تعدد الاتجاهات وتباينها تباينا عظيماً مابين إسلامي غالٍ وعلماني جاف، ولكل أهدافه من الثورة التي يريد أن يحققها من خلالها، بل لكل رغبته في الظفر بثمرة الثورة والاستئثار بها، وفي مثل هذا الاختلاف ومع عظم هذا التباين في الرؤى والإرادات من البدهي أن ينشب خلاف بل صراع إن لم يحسن الإسلاميون إدارته فقد يتطور الوضع إلى تدخل في البلاد من قبل عدو خارجي، وربما قبل ذلك تمزيق للقطر وإحلال لنحو الحالة الصومالية فيه، والتدخل الخارجي الكالح في البلدان التي للغرب فيها أطماع اقتصادية بترولية أو نحوها سيكون سريعاً. ومن التحديات أن يعي الإسلاميون ذلك، وأن لا يستهينوا بالعدو الداخلي فإنه مجرد ذيل أو امتداد لجسم خارجي كبير، يترقب فرصة، وفي ظل هذه الأوضاع الغائمة ينبغي أن تتوحد صفوف الإسلاميين مهما كان الاختلاف بينهم، فإن تعسر هذا فأقل ما يقال يجب أن يحذروا أن يكون بعضهم عوناً على بعض وإن كان

هذا البعض فيه نوع غلو، بإمكان الفئة المعتدلة أن تنأى بنفسها عن الصراع، وتخلي بين من لم يستمع لنصحها ويدخل في حلفها وبين عدوه فلا تتدخل بموجب عهدها، لكن إياها أن تكون أداة للعدو، ويدا يضرب بها، فإن هذا أول طريق تمزيق الجبهة الداخلية، وتفريق الجماعة الواحدة المعتدلة، والخطوة التالية بعد ذلك إن قدر لها الظهور على من فيه غلو هو الانقلاب عليها من قبل من استخدمها. ومما أراه في هذا الصدد أن يتوحد المسلمون في برنامج عمل وسطي، يراعي الممكن، ويعرف مقدار قدرته، ويتدرج في القيام بشرع الله، على أن يتولى ذلك أناس عالمون صادقون، لا أقوام يتبعون التأويلات في الركون إلى الذين ظلموا ودنياهم. هذا هو أقصر طريق لتجاوز الأزمة، فلا أقل من النأي عن الصراع على ما سبق إن لم يمكن الوقوف مع من نخالف من الإسلاميين، والتنازل لهم، وهذه هي المبادئ الثلاثة التي أدعو إليها في تعامل الإسلاميين المختلفين مع بعضهم في أوقات الأزمات:

الاجتماع على كلمة حق وسطية تدرك أبعاد المرحلة ومقتضيات التعامل معها، وتتدرج في إقامة دين الله لا تتملص منه وتتخلص.

إن لم يمكن ما سبق التنازل والوقوف مع الإسلاميين المخالفين ضد عدوهم فإن وحدة الصف على رأي إسلامي وإن كان فيه خلل أوجب وأولى من التفرق الذي يأتي على الجميع.

إن لم يمكن الثاني فلا أقل من النأي عن الدخول في صراع مع الإسلاميين المخالفين في مثل هذه المرحلة الحرجة.

أثناء الثورات يكثر إطلاق الوعود، وارتجال الكلمات الحماسية، والعجز بعد ذلك عن تحقيق ما قيل يشوه الصورة ويدخل البلاد في فوضى، وسبيل ذلك ضبط الصف الإسلامي، فلا يتحدث إلا مخول ويجب أن يكون عقلاً مستشيرا، ولا يعد إلا بما في مقدوره، وأن يتعلم الإحالة لأهل العلم والرأي والاعتذار بذلك للعامة إن طلب منه حديثاً في شأن له خطر.

المعارك السياسية إبان الثورات تقتضي حشدا جماهيرياً، وعملاً دؤوباً، وهذا مطلوب، لكن من المهم حتى لا ينقلب هذا على الإسلاميين أن يعتنوا كذلك بالتربية، والتوجيه السديد أثناء هذا الحشد، بحيث يكون التأييد الجماهيري عن فهم وقناعة، ولا يكون هدفهم جمع الدعم وحشد التأييد فقط، فإن من أيدك اليوم قد يعارضك غداً إن لم يبن تأييده عن عقيدة أو قناعة راسخة.

في ظل المعارك السياسية، قد تحصل استطالة من فئة على فئة، أو بغي من قوم على قوم، والبغي مرتعه وخيم حتى لو صدر من إسلامي تجاه علماني، فالعدل واجب مع الجميع: (وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [المائدة: ٨]، ومن أخطر آثار الظلم العاجلة كسب المظلوم تعاطف الشعب، وتهييج الناس على صاحب الحق، فلينتبه لهذا، ولنتوخ العدل، ولننقد الأعداء ولكن بعلم وعدل.

في مثل هذه الأوضاع يتصدر كثيرون من أصحاب الألسنة الذربة، والواجب أن لا يصدر أو يتصدر إلاّ من هو أهل، فطلاقة اللسان وحدها ليست بمؤهل كاف، وأهم تلك المؤهلات العقل، والصدور فيما يقول عن علم أو عن رأي أهل العلم.

من يقطف ثمرة الثورة؟ سؤال يتردد! وقل أن يقال: ما هي ثمرة الثورة؟ ولماذا فرحنا بها كإسلاميين؟ ألأجل أن يستبدل دكتاتور بانحلال لبرالي؟ أم ثمة أسباب واضحة؟ كإقامة الدين، وحفظ مقدرات الأمة من النهب والضياع، وإصلاح دنيا الناس وأديانهم؟ إذا كان هذا هو الهدف فواجب على الإسلامي أن لا يغفل عنه، فيقدم تنازل عن شريعة لتحصيل منصب أو نيل عرض –وهذه غير تأخير إقامة ما لا يقدر عليه وبينهما ما بين السماء والأرض من الفرق– وإياه أن تمتد يده إلى دنيا القوم فإن العيون ترقبه، وليعلم أنه محتسب ما جاء ليحصل غرضه وإنما ليخدم أغراض الناس الدينية والدنيوية، فمن وجد في نفسه ضعفاً وتطلعا للدنيا، فخير له أن يحجم أو يعالج نفسه.

فتنة الناس بالحرية قد تخرج عن الحد الشرعي إلى معنى اللبرالية، وهذا يتطلب توعية للناس بوعي، دون خروج إلى حد الحجر عليهم، والظهور بمظهر المتسلط، أو المكره المجبر ولاسيما في هذه المرحلة.

ختاماً:

تلك بعض أصول التحديات، تندرج تحتها صور وجزئيات كثيرة يمكن أن ترد إليها، ولابد أن يكون البرنامج الإسلامي لكل جماعة أو مجموعة معنياً بها، وإلا فقد يبعد وسيكون مآله انقساما وخصاما، وهذا يتطلب عملاً دؤوباً جاداً ومشاريع مدروسة يتعاضد عليها أكفاء، وإلا فلا صلاح للأمة ولا التئام لصفها، ثم تكون العاقبة تجارب إسلامية فشالة، قد تستخدم لتشويه الهدى ودين الحق الذي بعث الله عز وجل به محمداً صلى الله عليه وسلم، وليس التغلب على تلك التحديات بالأمر الهين، بل هو شأن يستلزم جهاداً كبيراً

للنفس أولاً، وعملاً وإعداداً واستصلاحاً للأقربين أولاً، مع تضحيات وتنازلات عن حظوظ شخصية كثيرة، أما من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني، وانتظر المخلص الذي يصلح الأحوال بمفرده! فهو العاجز الذي سيبقى عاجزاً عن إقامة دين، أو إصلاح أمة.

وأخيراً هذه بعض التوصيات التي ألخصها من مقصود هذه الورقة:

العمل على التربية العلمية والسلوكية بين قواعد الإسلاميين وطلاب العلم، وتنشئتهم على الانصاف واحترام بعضهم، وتعليمهم كيف يختلفون مع بعضهم ومع غيرهم، والعناية بهذه البرامج من أهم المهمات.

التواصل الدؤوب مع الإسلاميين المخالفين وعدم إغفال ذلك في زحمة العمل السياسي، فإن التواصل يذيب كثيراً من الحواجز، ويذهب كثيراً من الظنون السيئة، ويبطل مفعول التشويه وعمليات الإيقاع الكيدية بين الإسلاميين، ويظهر عذر المخالف، ويقرب وجهات النظر، لكن شريطة أن يكون تواصل عاقل مع عاقل، وعالم مع عالم.

تصدير أهل الرأي والعلم في أوساط الإسلاميين، وتقديمهم والبعد عن تصدير الرؤوس الجهال، الذين لا يصدرون عن آراء علمائهم. بل الواجب إن لم يصدروا أن يتصدر بعضهم ويتقدم.

العناية بتزكية النفوس وتهذيبها من الأهمية بمكان، ومن ذلك الاستعانة بالعبادة، فإنها طريق عصمة، وسبب دفع للنقمة، وإصلاح للنفس.

على المنابر الإسلامية كمنبر الجمعة وغيره أن تحسن توجيه الناس، وتبصيرهم بحقائق الدين، وخطورة الركون إلى الذين ظلموا من المتحررين العلمانيين أو الشيوعيين الاشتراكيين، وعلى مفكري الإسلام ودعاته بيان فضله على ما سواه، وعلى العلماء بيان حكم الانتماء إلى الأحزاب العلمانية والاشتراكية ودعمها.

هذا ونسأل الله أن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، غير ضالين ولا مضلين، حرباً على أعدائه، سلماً لأوليائه، إخوة متحابين، والحمد لله رب العالمين.